وَرَوَاهُ البُرْقَانِي في «صَحِيحِهِ»، وَزَادَ: «**وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ المُضِلِّينَ**، .....

عدوًا من سوى أنفسهم، وأعظم من سُلِّط عليهم فيما أعلم التتار، فقد سلطوا على المسلمين تسليطًا لا نظير له؛ فيقال: إنهم قتلوا في بغداد وحدها أكثر من خمسمائة عالم في يوم واحد، وهٰذا شيء عظيم، وقتلوا الخليفة، وجعلوا الكتب الإسلامية جسرًا على نهر دجلة يطؤونها بأقدامهم ويفسدونها، وكانوا يأتون إلى الحوامل ويبقرون بطونهن ويخرجون أولادهن يتحركون أمامهم فيقتلونهم، وهي حية تشاهد ثم تموت.

قال ابن الأثير في «الكامل»: «لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هٰذه الحادثة استعظامًا لها كارهًا لذكرها فأنا أقدم رجلاً وأوخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه نعي الإسلام والمسلمين؟! ومن الذي يهون عليه ذكر ذٰلك؟! فيا ليت أمي لم تلدني! ويا ليتني مت قبل هٰذا وكنت نسيًا منسيًا! إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ذٰلك لا يجدي...»، وذكر كلامًا طويلاً ووقائع مفجعة، ومن أراد مزيدًا من ذٰلك؛ فليرجع إلى حوادث سنة ٦١٧ من الكتاب المذكور.

وفي الحديث دليل على تحريم القتال بين المسلمين، وإهلاك بعضهم بعضًا، وسبي بعضهم بعضًا، وأنَّه يجب أن يكونوا أمة واحدة حتى تبقى هيبتهم بين الناس وتخشاهم الأمم.

قوله: «إنَّما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»: بيَّن الرسول ﷺ أنَّه لا يخاف على الأمة إلاّ الأئمَّة المضلين. والأئمَّة: جمع إمام، والإمام قد يكون إمامًا في الخير أو الشر، قال تعالى في أئمة الخير: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وَإِذَا وَقَعَ عَلَيهِمُ السَّيفُ؛ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالمُشْرِكِينَ، .....

وقال تعالى عن آل فرعون أئمة: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

والذي في حديث الباب: «**الأئمة المضلين**»، أئمة الشر، وصدق النبي ﷺ، إنَّ أعظم ما يُخاف على الأمة الأئمة المضلون؛ كرؤساء الجهمية والمعتزلة وغيرهم الذين تفرَّقت الأمة بسببهم. والمراد بقوله: «**الأئمة المضلين**»: الذين يقودون الناس باسم الشرع، والذين يأخذون الناس بالقهر والسلطان؛ فيشمل الحكام الفاسدين، والعلماء المضلين، الذين يدّعون أنَّ ما هم عليه شرع الله، وهم أشدّ الناس عداوةً له.

قال الإمام أحمد رحمه الله: لو كان لي دعوة مستجابة؛ لصرفتها للسلطان؛ فإنَّ بصلاحه صلاح الأمة.

قوله: «وإذا وقع عليهم السيف...» إلخ: هٰذا من آيات النبي ﷺ، وهٰذا حق واقع؛ فإنَّه لما وقع السيف في هٰذه الأمة لم يُرفع، فما زال بينهم القتال منذ قتل الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه، وصارت الأمة يقتل بعضهم بعضًا ويسبي بعضها بعضًا.

قوله: «ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين»: الحي: بمعنى القبيلة. وهل المراد باللحوق هنا اللحوق البدني، بمعنى أنَّه يذهب هٰذا الحي إلى المشركين ويدخلون فيهم، أو اللحوق الحكمي، بمعنى أن يعملوا بعمل المشركين، أو الأمران معًا؟ الظاهر أنَّ المُراد جميع ذٰلك.

وأما الحي؛ فالظاهر أنَّ المراد به الجنس، وليس واحد الأحياء،

وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعَمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيينَ، .....

وإن قيل: إنَّ المراد واحد الأحياء؛ فلا بد أن يكون لهٰذا الحي أثره وقيمته في الأمة الإسلامية، بحيث يتبيَّن ويظهر، وربما يكون لهٰذا الحي إمام يزيغ ـ والعياذ بالله ـ ويفسد؛ فيتبعه كل الحي، ويتبيَّن ويظهر أمره.

قوله: «**وحتى تعبد فئام من أمَّتي الأوثان**»: الفِئام؛ أي: الجماعات، وهٰذا وقع؛ ففي كل جهة من جهات المسلمين من يعبدون القبور ويعظِّمون أصحابها ويسألونهم الحاجات والرغبات ويلتجئون إليهم، وفئام؛ أي: ليسوا أحياءً؛ فقد يكون بعضهم من قبيلة، والبعض الآخر من قبيلة؛ فيجتمعون.

قوله: «**وإنَّه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون**»: حصرهم النبي ﷺ بعدد، وكلهم يزعم أنَّه نبي أُوحي إليه، وهم كذابون؛ لأن النبي ﷺ خاتم النبيين ولا نبي بعده، فمن زعم أنَّه نبي بعد الرسول ﷺ؛ فهو كاذب كافر حلال الدم والمال، ومن صدَّقه في ذٰلك؛ فهو كافر حلال الدم والمال، وليس من المسلمين ولا من أمة محمد ﷺ ومن زعم أنَّه أفضل من محمد، وأنه يتلقى من الله مباشرة ومحمد ﷺ يتلقى منه بواسطة الملك؛ فهو كاذب كافر حلال الدم والمال.

وقوله: «**كذابون ثلاثون**» هل ظهروا أم لا؟ الجواب: ظهر بعضهم، وبعضهم يُنتظر؛ لأن النبي ﷺ لم يحصرهم في زمن معيَّن، وما دامت الساعة لم تقم؛ فهم يُنتظرون.

قوله: «**كلهم يزعم**»: أي: يدعي.

قوله: «**وأنا خاتم النبيين**» أي: آخرهم، وأكد ذٰلك بقوله: «**لا نبي**

لاَ نَبِيَّ بَعْدِي، وَلاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ مَنْصُورَةً، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ .....

بعدي»، فإن قيل: ما الجواب عما ثبت في نزول عيسى بن مريم في آخر الزمان، مع أنه نبي ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام؛ فالجواب: إن نبوته سابقة لنبوة محمد ﷺ، وأما كونه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام؛ فليس تشريعًا جديدًا ينسخ قبول الجزية، بل هو تشريع من محمد ﷺ؛ لأنه أخبر به مُقَرِّرًا له.

قوله: «ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة»: المعنى: أنَّهم يبقون إلى آخر وجودهم منصورين. هٰذا من نعمة الله، فلما ذكر أنَّ حيًّا من الأحياء يلتحقون بالمشركين، وأنَّ فئامًا يعبدون الأصنام، وأنَّ أناسًا يَدّعون النبوة؛ فيكون هنا الإخلال بالشهادتين: شهادة أن لا إلٰه إلا الله بالشرك، وأن محمدًا رسول الله بادعاء النبوة، وذٰلك أصل التوحيد، بل أصل الإسلام شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله. فلما بيَّن ذلك لم يجعل الناس ييأسون، فقال: **«لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة»**. والطائفة: الجماعة.

وقوله: «على الحق»: جار ومجرور خبر تزال.

قوله: «منصورة»: خبر ثانٍ، ويجوز أن يكون حالاً، والمعنى: لا تزال على الحق، وهي كذٰلك أيضًا منصورة.

قوله: «لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم»: خذلهم؛ أي: لم ينصرهم ويوافقهم على ما ذهبوا إليه، وفي هٰذا دليل على أنَّه سيوجد من يخذلهم، لٰكنه لا يضرهم؛ لأنَّ الأمور بيد الله، وقد قال ﷺ: **«واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلاَّ بشيء قد كتبه الله**

حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»[١].

عليك»[٢]، وكذلك لا يضرهم من خالفهم؛ لأنَّهم منصورون بنصر الله؛ فالله ـ عز وجل ـ إذا نصر أحدًا فلن يستطيع أحد أن يذلّه.

قوله: «حتى يأتي أمر الله»: أي: الكوني، وذلك عند قيام الساعة عندما يأتي أمره سبحانه وتعالى بأن تُقبض نفس كل مؤمن، حتى لا يبقى إلا شرار الخلق؛ فعليهم تقوم الساعة.

الشاهد من هٰذا الحديث: قوله في رواية البرقاني: **«حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين ويعبد فئام من أمتي الأوثان»**.

وقوله: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة» هٰذه لم يحدد مكانها؛ فتشمل جميع بقاع الأرض في الحرمين والعراق وغيرهما. فالمهم أنَّ هٰذه الطائفة مهما نَأَتْ بهم الدِّيار؛ فهي طائفة واحدة منصورة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله.

مسألة: قال بعض السلف: إن الطائفة المنصورة هم أهل الحديث؛ فما مدى صحة هٰذا القول؟

الجواب: هٰذا ليس بصحيح على إطلاقه، بل لا بد من التفصيل، فإن أريد بذلك أهل الحديث المُصْطَلَح عليه، الذين يأخذون الحديث

---

(١) هٰذه الزيادة رواها: أبو داود في (كتاب الفتن، باب ذكر الفتن، ٤/ ٤٥٢) ـ وسكت عنها ـ، وابن ماجه (كتاب الفتن، باب ما يكون من الفتن، رقم ٣٩٥٢)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٤٤٩) ـ وصححه على شرط الشيخين ـ، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٨٩)، وفي «الدلائل» (ص٤٦٩)، وأحمد في «المسند» (٥/ ٢٧٨، ٢٨٤).
وفي «النهج السديد» (ص١٢٩): «صحيح على شرط مسلم».

(٢) من حديث ابن عباس، رواه: الترمذي (صفة القيامة، باب «ولٰكن يا حنظلة ساعة وساعة»، ٧/ ٢٠٣) ـ وقال: «حسن صحيح» ـ، وأحمد في «المسند» (١/ ٢٩٣، ٣٠٧)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (رقم ٦٣٥).

● **فيهِ مَسائِلُ:**

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ النِّسَاءِ.

رواية ودراية وأخرج منهم الفقهاء وعلماء التفسير وما أشبه ذٰلك؛ فهٰذا ليس بصحيح؛ لأنَّ علماء التفسير والفقهاء الذين يَتَحَرَّون البناء على الدليل هم في الحقيقة من أهل الحديث، ولا يختص بأهل الحديث صناعة؛ لأن العلوم الشرعية: تفسير، وحديث، وفقه... إلخ.

فالمقصود: إن كل من تحاكم إلى الكتاب والسنة؛ فهو من أهل الحديث بالمعنى العام. وأهل الحديث هم: كل من يتحرَّى العمل بسنة رسول الله ﷺ؛ فيشمل الفقهاء الذين يتحرَّون العمل بالسنة، وإن لم يكونوا من أهل الحديث اصطلاحًا. فشيخ الإسلام ابن تيمية مثلًا لا يعتبر اصطلاحًا من المحدِّثين، ومع ذٰلك؛ فهو رافع لراية الحديث. والإمام أحمد رحمه الله تنازعه طائفتان: أهل الفقه قالوا: إنَّه فقيه، وأهل الحديث قالوا: إنَّه محدِّث. وهو إمام في الفقه والحديث والتفسير، ولا شك أن أقرب الناس تمسُّكًا بالحديث هم الذين يعتنون به. ويُخشى من التعبير بأن الطائفة المنصورة هم أهل الحديث أن يظنّ أنَّهم أهل الحديث الذين يعتنون به اصطلاحًا، فيخرج غيرهم. فإذا قيل: أهل الحديث بالمعنى الأعم الذين يأخذون بالحديث، سواء انتسبوا إليه اصطلاحًا واعتنوا به أو لم يعتنوا، لٰكنهم أخذوا به؛ فحينئذٍ يكون صحيحًا.

* * *

فيه مسائل:

● **الأولى: تفسير آية النساء**: وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾، وقد سبق ذٰلك.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ المَائِدَةِ.

الثالثة: تَفْسِيرُ آيَةِ الكَهْفِ.

الرابعة: وَهِيَ أَهَمُّهَا: مَا مَعْنَى الإِيمَانِ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ؟ هَلْ هُوَ اعْتِقَادُ قَلْبٍ؟ أَوْ مُوَافَقَةُ أَصْحَابِهَا مَعَ بُغْضِهَا وَمَعْرِفَةِ بُطْلَانِهَا؟

الخامسة: قَوْلُهُم: إِنَّ الكُفَّار الذينَ يَعْرِفُونَ كُفْرَهُمْ أَهْدَى سَبِيلاً من المُؤْمِنِينَ.

● **الثانية: تفسير آية المائدة**: وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾، وقد سبق تفسيرها. والشاهد منها هنا قوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾.

● **الثالثة: تفسير آية الكهف**: يعني: قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، وقد سبق بيان معناها.

● **الرابعة ـ وهي أهمها ـ: ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت؟ هل هو اعتقاد القلب، أو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟** أما إيمان القلب واعتقاده؛ فهٰذا لا شك في دخوله في الآية. وأما موافقة أصحابها في العمل مع بغضها ومعرفة بطلانها؛ فهٰذا يحتاج إلى تفصيل، فإن كان وافق أصحابها بناءً على أنها صحيحة؛ فهٰذا كفر، وإن كان وافق أصحابها ولا يعتقد أنها صحيحة؛ فإنه لا يكفر، لٰكنه لا شك على خطر عظيم يخشى أن يؤدي به الحال إلى الكفر والعياذ بالله.

● **الخامسة: قولهم: إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين**: يعني: إن هٰذا القول كفر وردَّة؛ لأنَّ من زعم أن الكفار

السادسة: وَهِيَ المَقْصُودُ بِالتَّرْجَمَةِ: أَنَّ هٰذَا لاَ بُدَّ أَنْ يُوجَدَ فِي هٰذِهِ الأُمَّةِ كَمَا تَقَرَّرَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ.

السابعة: تَصْرِيحُهُ بِوُقُوعِهَا ـ أَعْنِي: عِبَادَةَ الأَوْثَانِ ـ.

الثامنة: العَجَبُ العُجَابُ: خُرُوجُ مَنْ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ؛ مِثْلِ المُخْتَارِ، مَعَ تَكَلُّمِهِ بِالشَّهَادَتَيْنِ، وَتَصْرِيحِهِ بِأَنَّهُ مِنْ هٰذِهِ الأُمَّةِ، وَأَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ، وَأَنَّ القُرْآنَ حَقٌّ، وَفِيهِ أَنَّ مُحَمَّدًا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَمَعَ هٰذَا يُصَدَّقُ فِي هٰذَا كُلِّهِ، مَعَ التَّضَادِّ الوَاضِحِ، وَقَدْ خَرَجَ المُخْتَارُ فِي آخِرِ عَهْدِ الصَّحَابَةِ، وَتَبِعَهُ فِئَامٌ كَثِيرَةٌ.

الذين يعرف كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين؛ فإنه كافر لتقديمه الكفر على الإيمان.

● **السادسة ـ وهي المقصودة بالترجمة ـ: أن هٰذا لا بد أن يوجد في هٰذه الأمة كما تقرر في حديث أبي سعيد.**

● **السابعة: تصريحه بوقوعها؛ أعني: عبادة الأوثان**: والترجمة التي أشار إليها رحمه الله هي قوله: «**باب ما جاء أن بعض هٰذه الأمة يعبد الأوثان**»، وحديث أبي سعيد هو قوله ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟**». أخرجاه. وهٰذا يتضمن التحذير من أن تقع هٰذه الأمة في مثل ما وقع فيه من سبقها.

● **الثامنة: العجب العجاب: خروج من يدعي النبوة، مثل المختار مع تكلمه بالشهادتين، وتصريحه بأنه من هٰذه الأمة، وأن الرسول حق، وأن القرآن حق، وفيه أن محمدًا خاتم النبيين، ومع هٰذا يُصَدَّق في هٰذا كله، مع التَّضاد الواضح، وقد خرج المختار في آخر عهد الصحابة، وتبعه**

التاسعة: البِشَارَةُ بِأَنَّ الحَقَّ لاَ يَزُولُ بِالكُلِّيَّةِ كَمَا زَالَ فِيمَا مَضَى، بَلْ لاَ تَزَالُ عَلَيْهِ طَائِفَةٌ.

العاشرة: الآيَةُ العُظْمَى: أَنَّهُمْ مَعَ قِلَّتِهِم لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُم وَلاَ مَنْ خَالَفَهُم.

الحادية عشرة: أَنَّ ذٰلِكَ الشَّرْطَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

فئام كثيرة: والمختار هو ابن أبي عبيد الثقفي، خرج وغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير رضي الله عنه، وأظهر محبة آل البيت، ودعا الناس إلى الثأر من قتلة الحسين؛ فتتبعهم، وقتل كثيرًا ممن باشر ذٰلك أو أعان عليه، فانخدع به العامة، ثم ادعى النبوة وزعم أن جبريل يأتيه.

ولا شك أن هٰذه المسألة من العجب العجاب أن يدعي النبوة وهو يؤمن أن القرآن حق، وفي القرآن أن محمدًا ﷺ خاتم النبيين؛ فكيف يكون صادقًا، وكيف يُصدَّق مع هٰذا التناقض؟! ولٰكن من لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

● **التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى، بل لا تزال عليه طائفة**: يعني: من هٰذه الأمة منصورة إلى يوم القيامة. يؤخذ هٰذا من آخر الحديث: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهُم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى**».

● **العاشرة: الآية العظمى أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم**: وهٰذه آية عظمى: أن الكثرة الكاثرة من بني آدم على خلاف ذٰلك، ومع ذٰلك لا يضرونهم، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

● **الحادية عشرة: أن ذٰلك الشرط إلى قيام الساعة**: وقد سبق.

الثانية عشرة: مَا فِيهِ مِنَ الآيَاتِ العَظِيمَةِ: مِنْهَا إِخْبَارُهُ بِأَنَّ اللَّهَ زَوَى لَهُ المَشَارِقَ وَالمَغَارِبَ، وَأَخْبَرَ بِمَعْنَى ذَلِكَ فَوَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ؛ بِخِلَافِ الجَنُوبِ وَالشِّمَالِ. وَإِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ أُعْطِيَ الكَنْزَيْنِ. وإِخْبارُهُ بِإِجَابَةِ دَعْوَتِهِ لأُمَّتِهِ فِي الاثْنَتَيْنِ. وإِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ مُنِعَ الثَّالِثَةَ. وَإِخْبَارُهُ بِوُقُوعِ السَّيْفِ، وَأَنَّهُ لاَ يُرْفَعُ إِذَا وَقَعَ. وَإِخْبَارُهُ بِإِهْلاَكِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً، وَسَبْيِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً. وَخَوْفُهُ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ الأَئِمَّةِ المُضِلِّينَ. وَإِخْبَارُهُ بِظُهُورِ المُتَنَبِّئِينَ فِي هٰذِهِ الأُمَّةِ. وَإِخْبَارُهُ بِبَقَاءِ الطَّائِفَةِ المَنْصُورَةِ. وَكُلُّ هٰذَا وَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ، مَعَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا أَبْعَدُ مَا يَكُونُ فِي العُقُولِ.

● **الثانية عشرة: ما فيه من الآيات العظيمة**: أي: ما في هٰذا الحديث من الآيات العظيمة، والآيات: جمع آية، وهي العلامة، والآيات التي يؤيد الله بها رسله عليهم الصلاة والسلام هي العلامات الدالة على صدقهم.

فمما في هٰذا الحديث: إخباره بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ زوى له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنى ذٰلك؛ فوقع كما أخبر بخلاف الجنوب والشمال، فإن رسالة النبي ﷺ امتدت نحو الشرق والغرب أكثر من امتدادها نحو الجنوب والشمال، وهٰذا من علم الغيب الذي أَطْلَع الله رسوله ﷺ عليه. ومنها: إخباره أنه ﷺ أُعطي الكنزين، وهما كنزا كسرى وقيصر.

ومنها: إخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين، وهما ألا يهلكها بسنة بعامة، وألا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا... إلخ، ومنع الثالثة، وهي ألا يجعل بأس

.....

هٰذه الأمة بينها؛ فإن هٰذا سوف يكون كما صَرّح به حديث عامر بن سعد عن أبيه: «**إن النبي ﷺ أقبل ذات يوم من العالية، حتى إذا مر بمسجد بني معاوية؛ دخل، فركع فيه ركعتين وصلينا معه، ودعا دعاءً طويلاً، وانصرف إلينا؛ فقال: «سألت ربي ثلاثًا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة: سألت ربي ألا يهلك أمتي بالسنة؛ فأعطانيها، وسألته ألا يهلك أمتي بالغرق؛ فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم؛ فمنعنيها**»[1]؛ أي: منعني إياها.

ومن الآيات التي تضمنها هٰذا الحديث: إخباره بوقوع السيف في أمته، وأنه إذا وقع؛ فإنه لا يرفع حتى تقوم الساعة، وقد كان الأمر كذٰلك؛ فإنه منذ سُلّت السيوف على المسلمين من بعضهم على بعض بقي هٰذا إلى يومنا هٰذا. ومنها: إخباره بإهلاك بعضهم بعضًا وسَبْي بعضهم بعضًا، هٰذا أيضًا واقع. ومنها: خوفه على أمته من الأئمة المضلين، والأئمة: جمع إمام، والإمام: هو من يقتدى به؛ إما لعلمه، وإما لسلطته، وإما لعبادته. ومنها: إخباره بظهور المتنبئين في هٰذه الأمة، وأنهم ثلاثون، قال ابن حجر[2]: «هٰذا الحصر بالثلاثين لا يعني انحصار المُتَنَبِّئين بذٰلك؛ لأنهم أكثر من ذٰلك».

قلت: فيكون ذكر الثلاثين لبيان الحد الأدنى؛ أي أنهم لا ينقصون عن ذٰلك العدد، وإنما عدلنا عن ظاهر اللفظ للأمر الواقع، وهٰذا ـ والله أعلم ـ هو السر في ترك المؤلف رحمه الله العدد في مسائل الباب مع أنه

(١) أخرجه: مسلم في (الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هٰذه الأمة بعضهم بعضًا، ٢٨٩٠) عن سعد رضي الله عنه.

(٢) «فتح الباري» (٦/ ٦١٧).

الثالثة عشرة: حَصْرُ الخَوْفِ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ الأئمَّةِ المُضِلِّينَ.

الرابعة عشرة: التَّنْبِيهُ عَلَى مَعْنَى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ.

صريح في الحديث. ومنها: إخباره ببقاء الطائفة المنصورة، وهٰذا كله وقع كما أخبر.

قال الشيخ رحمه الله: «مع أن كل واحدة منها أبعد ما يكون في العقول».

● **الثالثة عشرة: حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين:** ووجه هٰذا الحصر أن الأئمة ثلاثة أقسام: أمراء وعلماء وعباد؛ فهم الذين يخشى من إضلالهم لأنهم متبوعون؛ فالأمراء لهم السلطة والتنفيذ، والعلماء لهم التوجيه والإرشاد، والعُبّاد لهم تغرير الناس وخداعهم بأحوالهم؛ فهؤلاء يطاعون ويقتدى بهم، فيخاف على الأمة منهم؛ لأنهم إذا كانوا مضلين ضل بهم كثير من الناس، وإذا كانوا هادين اهتدى بهم كثير من الناس.

● **الرابعة عشرة: التنبيه على معنى عبادة الأوثان:** يعني أن عبادة الأوثان لا تختص بالركوع والسجود لها، بل تشمل اتّباع المُضِلّين الذين يُحلّون ما حرم الله فيُحلّه الناس، ويُحَرّمون ما أحله الله فيحرمه الناس.

* * *

بَابٌ
مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ

.....

السحر لغةً: ما خفي ولطف سببه، ومنه سمي السَّحر لآخر الليل؛ لأن الأفعال التي تقع فيه تكون خفية، وكذلك سمي السَّحور؛ لما يؤكل في آخر الليل؛ لأنَّه يكون خفيًا؛ فكل شيء خفي سببه يسمى سحرًا.

وأما في الشرع؛ فإنه ينقسم إلى قسمين:

الأول: عُقَد ورُقى؛ أي: قراءات وطلاسم يتوصل بها الساحر إلى استخدام الشياطين فيما يريد به ضرر المسحور، لكن قد قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

الثاني: أدوية وعقاقير تؤثر على بدن المسحور وعقله وإرادته وميله؛ فتجده ينصرف ويميل، وهو ما يسمى عندهم بالصرف والعطف فيجعلون الإنسان ينعطف على زوجته أو امرأة أخرى، حتى يكون كالبهيمة تقوده كما تشاء، والصرف بالعكس من ذلك فيؤثر في بدن المسحور بإضعافه شيئًا فشيئًا حتى يهلك، وفي تصوره بأن يتخيل الأشياء على خلاف ما هي عليه وفي عقله؛ فربما يصل إلى الجنون والعياذ بالله.

فالسحر قسمان:

أ ـ شرك، وهو الأول الذي يكون بواسطة الشياطين؛ يعبدهم ويتقرب إليهم ليسلطهم على المسحور.

ب ـ عدوان وفسق، وهو الثاني الذي يكون بواسطة الأدوية والعقاقير ونحوها.

.....

وبهٰذا التقسيم الذي ذكرناه نتوصل به إلى مسألة مهمة، وهي: هل يكفر الساحر أو لا يكفر؟

اختلف في هٰذا أهل العلم: فمنهم من قال: إنه يكفر ومنهم من قال: إنه لا يكفر.

ولٰكن التقسيم السابق الذي ذكرناه يتبين به حكم هٰذه المسألة، فمن كان سحره بواسطة الشياطين؛ فإنه يكفر لأنه لا يَتأتّى ذٰلك إلا بالشرك غالبًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ . . .﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ومن كان سحره بالأدوية والعقاقير ونحوها؛ فلا يكفر، ولٰكن يعتبر عاصيًا معتديًا.

وأما قتل الساحر، فإن كان سحره كفرًا؛ قُتِل قَتْل ردة، إلا أن يتوب على القول بقبول توبته، وهو الصحيح، وإن كان سحره دون الكفر؛ قُتِل قَتْل الصائل؛ أي: قتل لدفع أذاه وفساده في الأرض، وعلى هٰذا يرجع في قتله إلى اجتهاد الإمام، وظاهر النصوص التي ذكرها المؤلف أنه يقتل بكل حال؛ فالمهم أن السحر يؤثر بلا شك، لٰكنه لا يؤثر بقلب الأعيان إلى أعيان أخرى؛ لأنه لا يقدر على ذٰلك إلا الله ـ عز وجل ـ، وإنما يُخَيَّل إلى المسحور أن هٰذا الشيء انقلب وهٰذا الشيء تحرك أو مشى وما أشبه ذٰلك، كما جرى لموسى عليه الصلاة والسلام أمام سحرة آل فرعون، حيث كان يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى.

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾[1].

وَقَوْلُهُ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾[2].

إذا قال قائل: ما وجه إدخال باب السحر في كتاب التوحيد؟

نقول: **مناسبة الباب لكتاب التوحيد:** لأن من أقسام السحر ما لا يَتَأتّى غالبًا إلا بالشرك؛ فالشياطين لا تخدم الإنسان غالبًا إلا لمصلحة، ومعلوم أن مصلحة الشيطان أن يغوي بني آدم فيدخلهم في الشرك والمعاصي.

* * *

وقد ذكر المؤلف في الباب آيتين:

● **الآية الأولى قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾: ضمير الفاعل يعود على متعلمي السحر، والجملة مُؤَكَّدة بالقَسَم المقدر واللام وقد. ومعنى ﴿ٱشْتَرَىٰهُ﴾؛ أي: تعلمه.

قوله: ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾: أي: ما له من نصيب، وكل من ليس له في الآخرة من خلاق؛ فمقتضاه أن عمله حابط باطل، لٰكن إما أن ينتفي النصيب انتفاءً كليًا فيكون العمل كفرًا، أو ينتفي كمال النصيب فيكون فسقًا.

* * *

● **الآية الثانية قوله تعالى:** ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: أي: اليهود. ﴿بِٱلْجِبْتِ﴾؛ أي: السحر كما فسرها عمر بن الخطاب. واليهود كانوا من أكثر الناس

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٢

(٢) سورة النساء: الآية ٥١.

قَالَ عُمَرُ: «الجِبْتُ: السِّحْرُ، والطَّاغُوتُ: الشَّيْطانُ»[(١)].

تعلمًا للسحر وممارسةً له، ويَدَّعون أن سليمان عليه السلام علمهم إياه، وقد اعتدوا؛ فسحروا النبي ﷺ.

قوله: ﴿ٱلطَّٰغُوتِ﴾: أجمع ما قيل فيه: هو ما تجاوز به العبد حده؛ من معبود، أو متبوع، أو مطاع. ومعنى «من معبود»؛ أي: بعلمه ورضاه، هٰكذا قال ابن القيم رحمه الله، وقد سبق في أول الكتاب[(٢)] التعليق على هٰذا القول عند قوله: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

الشاهد: قوله: ﴿بِٱلْجِبْتِ﴾، حيث فسرها أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بأنها السحر. وأما تفسيره الطاغوت بالشيطان؛ فإنه من باب التفسير بالمثال.

والسلف رحمهم الله يفسرون الآية أحيانًا بمثال يحتذى عليه، مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

قال بعض المفسرين: الظالم لنفسه: الذي لا يصلي إلا بعد خروج الوقت، والمقتصد: الذي يصلي في آخر الوقت، والسابق بالخيرات: الذي يصلي في أول الوقت. وهٰذا مثال من الأمثلة، وليس ما تدل عليه الآية على وجه الشمول، ولهٰذا فسرها بعضهم بأن الظالم لنفسه الذي لا

---

(١) علقه البخاري بصيغة الجزم في (كتاب التفسير، باب ﴿إن كنتم مرضى أو على سفر﴾، ووصله ابن جرير في «تفسيره» (٣/ ١٣، ٥/ ٨٣).
وقال ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٢٥٢): «وصله عبد بن حميد في «تفسيره»، ومسدد في «مسنده»، وعبد الرحمن بن رستة في «كتاب الإيمان»؛ كلهم من طريق أبي إسحاق، عن حسان بن فائد، عن عمر مثله، وإسناده قوي...».
ووصله أيضًا ابن أبي حاتم وأبو القاسم البغوي؛ كما في «تفسير ابن كثير» (١/ ٣١١).

(٢) سبق (ص٢٨).

وَقَالَ جَابِرٌ: «الطَّوَاغِيتُ كُهَّانٌ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ»(١).

يخرج الزكاة، والمقتصد من يخرج الزكاة ولا يتصدق، والسابق بالخيرات من يخرج الزكاة ويتصدق.

فتفسير عمر رضي الله عنه للطاغوت بالشيطان تفسير بالمثال؛ لأن الطاغوت أعم من الشيطان؛ فالأصنام تعتبر من الطواغيت؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، والعلماء والأمراء الذين يضلون الناس يُعتبرون طواغيت؛ لأنهم طغوا وزادوا وفعلوا ما ليس لهم به حق.

* * *

قوله: «الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد»: هٰذا أيضًا من باب التفسير بالمثال، حيث إنه جعل من جملة الطواغيت الكهان. والكاهن؛ قيل: هو الذي يخبر عما في الضمير. وقيل: الذي يخبر عن المُغَيَّبات في المستقبل.

وكان هٰؤلاء الكهان تنزل عليهم الشياطين بما استرقوا من السمع من السماء، وكان كل حي من أحياء العرب لهم كاهن يستخدم الشياطين، فتسترق له السمع، فتأتي بخبر السماء إليه. وكانوا يتحاكمون إليهم في الجاهلية.

والطواغيت ليسوا محصورين في هٰؤلاء؛ فتفسير جابر رضي الله عنه تفسير بالمثال كتفسير عمر رضي الله عنه.

* * *

---

(١) علقه البخاري بصيغة الجزم في الموضع السابق.
وقال ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٢٥٢): «ووصله ابن أبي حاتم من طريق وهب بن منبه»، ووصله أيضًا ابن جرير في «تفسيره» (٣/ ١٣).